«تحفة المشتاق» ... المؤلف والمخطوطة:

قبل أن نذهب مع المؤرخ عبدالله البسام في رحلة صاخبة بالأحداث في «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» أجد لزاماً عليّ أن أقدم هذه الدراسة الموجزة عن المؤلف والمخطوطة لتمهيد الطريق أمام القارئ للتعرف بصورة أكثر وضوحاً على «التحفة» كعمل تاريخي مهم.

❖ ❖ ❖

❖ ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا الكتاب عالم نجدي توفي في مدينة عنيزة بالقصيم قبل حوالي ثمانين عاماً، وليس بين أيدنا الكثير من المعلومات عنه حيث أن لم يعط نفسه اهتماماً بين ثنيات كتابه فلم يترجم لنفسه، والمصدر الرئيس لترجمته هو ما أورده الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام في كتابه القيّم «علماء نجد خلال ثمانية قرون» بالإضافة إلى إشارات أمين الريحاني في «تاريخ نجد الحديث» كما أننا نستطيع التعرف من خلال هذا الكتاب على ملامح من شخصية هذا العالم:

نسباً هو: عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن بسام بن منيف بن عساكر بن بسام بن عقبة بن ريّس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي أسود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. البسامي الوهيبي التميمي.

وكما يتضح من نسبه فهو ينتسب إلى آل بسام من الوهبة من تميم، ولذلك نجده كثيراً ما يذكر هذه العائلة في ثنيات كتابه حتى فيما هو عادي من أخبارها كما نراه يهتم بتوضيح تفرعات تميم والأسر التي تنتسب إليها كلما جاءت مناسبة لذلك.

وأسرة المؤلف أصلاً من أشيقر، وكان جده الخامس الشيخ أحمد بن محمد بن عبدالله البسام قد ارتحل من بلد أشيقر سنة ١٠١٠هـ إلى بلد القصب ليتولى منصب القاضي فيه فلم يرغب في سكنى القصب، فطلبه أهل بلد ملهم قاضياً لهم فارتحل من القصب إلى ملهم وصار قاضياً في ملهم إلى أن ارتحل إلى بلد العيينة سنة ١٠١٥هـ، وأقام بها حتى توفي بها في سنة ١٠٤٠هـ تقريباً.

أما الإنتقال إلى عنيزة فقد حدث بعد انتقال رهط المؤلف إلى حرمة التي ارتحل منها فيما بعد الجد الثاني للمؤلف وهو حمد بن إبراهيم بن عبدالله بن الشيخ أحمد البسام هو وأولاده إلى بلد عنيزة وسكنها سنة ١١٧٩هـ (وقيل سنة ١١٧٥هـ).

ولحمد هذا ستة أولاد هم «عبدالعزيز الجد المباشر للمؤلف المتوفي في وباء الكوليرا بمكة سنة ١٢٦٢هـ، وإبراهيم، وسليمان، وعبدالقادر، وعبدالرحمن، ومحمد»، وقد ذكر المؤلف وفيات بعضهم بين ثنايا الكتاب، ولكنه لم يذكر شيئاً عن أبيه في حين ذكر بعض أخوته فيما يتعلق برحيل بعضهم إلى البصرة واتهام أحدهم بجريمة قتل هناك وسنوات وفياتهم، ولكنه لم يؤرخ في «تحفة المشتاق» لمولده هو، ولم يذكر أي خبر شارك هو فيه إلا فيما يتعلق بنشاطاته الزراعية من حفر آبار وغرس نخيل في نواحي عنيزة.

ويذكر صاحب «علماء نجد» أن والد المؤلف توفي في «وقعة المطر» التي فصلها المؤلف في تحفة المشتاق ضمن حوادث سنة ١٢٧٩هـ دون أن يذكر أن أباه كان من قتلاها، ولعله صفح عنها ذكراً جرياً على عادته في الحياد كما سنوضح لاحقاً، وقد ترك أبوه يومها أربعة أولاد هم: «حمد: ١٦ عاماً، وعبدالعزيز: ١٠ أعوام، وعبدالله مؤلفنا: ٤ أعوام، عبدالرحمن: جنين في بطن أمه»، وبنت واحدة هي «نورة: عامين».

ورغم أن صاحب «علماء نجد» يذكر تاريخاً محدداً لولادة مؤلف التحفة وهو سنة ١٢٧٥هـ (١٨٥٨م) فإن أحد الباحثين (١) يقدم تاريخاً آخر لولادة عبدالله البسام هو سنة ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) إلا انني أطمئن اكثر لما اورده صاحب «علماء نجد» لما فيه من تفصيل وقربه العائلي من مؤلف التحفة.

---

(١) عبدالكريم المنيف الوهبي في كتابه «بنو خالد وعلاقتهم بنجد» (دار ثقيف، الرياض، ١٩٨٩م، ط١).

بعد مقتل رب الأسرة دون أن يترك لها مالاً كثيراً استلم الأخ الأكبر حمد المسؤولية فعمل في التجارة بين عنيزة وسوق الشيوخ، وجعل إخوته الصغار شركاء له حتى كبروا، وتمكن من فتح «بيت تجارة» في جدة، ولما اتسعت أعمالهم نقلوها إلى البصرة، وتم توزيع العمل بين الأخوان فأخذ حمد وعبدالرحمن يعملان في بيت البصرة بالتناوب بينما يعمل عبدالعزيز وعبدالله «مؤلف التحفة» في بيت الهند بالتناوب، فاتسعت أعمالهم حتى صاروا من أثرياء نجد المعدودين.

ويتقدم العمر بالأخوة الأربعة ويرزقهم الله بالأولاد الصالحين لمتابعة التجارة فيركنون إلى الراحة أخيراً، ويستقر المؤلف في بلده عنيزة سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) حيث يزرع بستانه «المهيرية» الذي يذكره في كتابه عدة مرات، ويحفر بئراً غزيرة فيه سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).

وتوفي عبدالله البسام في بستانه بعنيزة ضحى الأحد ٢٥ محرم سنة ١٣٤٦هـ (٢٤ يوليو ١٩٢٧م) وصلّي عليه في جامع عنيزة بعد صلاة العصر، وشيعه كافة أهل البلد من الأعيان وغيرهم، وترك أولاداً من بينهم الولد الذي ذُكر أن النسخة الأصلية للكتاب كانت بحوزته، وقال صاحب «علماء نجد» أنه خلف أبناء لم يخلفوا إلا حفيدين يقيمان في البصرة، وله بنات وأسباط عديدين من جهتهن.



الجانب العلمي والأدبي للمؤلف:

رغم أن مؤلف «التحفة» لا يشير في الكتاب إلى أي شيء من ملامح هذه الحياة الحافلة بالأحداث التي عاشها، ولا يذكر أسفاره وتنقلاته وتجارته إلا أن صاحب «علماء نجد» الذي ننقل عنه هذه الأسطر يؤكد أن المؤلف اكتسب من حياة الترحال بين عنيزة والبصرة وجدة والهند علوماً ومعارف وجالس العلماء وعرف حلقات العلم دون انتظام، وبدأ كتابة «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» وهو يعمل بالتجارة في بلاد الهند.

كما أن له معرفة بالشعر فيذكر ضمن حوادث سنة ١٣٢٨هـ في تحفته مرثية له في أحد الأعيان ويورد منها بيتاً واحداً، وله كما روى صاحب «علماء نجد» هذه الأبيات في تاريخ إخراج ماء «المويهرية» سنة ١٣٤١هـ:

رجـوتُ رحـيـمـاً واسـتـعنتُ بعـونهِ
كـمسـتـمطرٍ يرجـو المنى من غـمـامـهِ
على حـفـر بئـرٍ فـاق مـا كـان قـبلهُ
فـجـاء نميـراً يُسـتـقى من جـمـامـه
ولما اسـتـتمّ البـئـرُ، قلتُ مـؤرخـاً:
«حـمـدت كـريماً منَّ لي بتـمـامـه»

وقد حظي بالبسام بعدة إشادات أهمها وأعظمها شأناً وصف الملك عبدالعزيز آل سعود له بأنه «من العارفين المدققين»، وذكره أمين الريحاني في «تاريخ نجد الحديث» ثلاث مرات أوضح فيها أنه مر به في عنيزة وأثنى على «علمه وأدبه وروحه العصرية في كثير من أمور الحياة»، وأكد أنه مرجعه في نبذته عن نواحي نجد وأنه كتب له لائحة بأسماء بلدان القصيم وسدير والعارض (١)، وأشار صاحب «علماء نجد» إلى أن المؤلف كان «من الأعيان الوجهاء في بلده وغيرها، ويحرص الأمراء والعلماء والأعيان على مجالسته ومنادمته والإستفادة منه، فبستانه الغني بالماء العذب وأشجار النخيل والفاكهة مزار لمحبيه ومجالسيه، ويجدون الصدر الرحب والنفس الطيبة والبشاشة والطلاقة، كما يجدون عنده حسن المجالسة والمؤانسة، ولم يزل على أحواله الطيبة حتى توفاه الله». (٢)

وترك عبدالله البسام من المؤلفات ما يأتي:

١- تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، وهو هذا الكتاب.

٢- الدليل المفيد لمن هو للدين والدنيا مريد، وهو مجموع في الأدب والحكم والأشعار، والتاريخ المذكور لبداية تصنيفه غريب إذ أنه ١٢٨٥هـ، ولا يعقل أن يلتفت المؤلف للتصنيف وهو في العاشرة من عمره مما يجعلنا أمام أحد أمرين فإما أن هذا التاريخ خطأ أو أن تاريخ المولد خطأ فيكون الصواب ما ذكره عبدالكريم الوهبي، وأعني

---

(١) تاريخ نجد الحديث لأمين الريحاني (دار الجيل، بيروت، دت)، ص١٥.

(٢) علماء نجد خلال ثمانية قرون لعبدالله بن عبدالرحمن آل بسام (دار العاصمة، الرياض، ١٤١٩هـ، ط٢)، ج٤، ص٤٢٦. وقد اعتمدت على كثير مما أورده في ترجمة المؤلف في عدة مواضع.

سنة ١٢٦٨هـ.

٣- كراريس في التاريخ والأنساب والأشعار والأخبار، وهي على غرار مشاهدات خيرالدين الزركلي في كتابه «ما رأيت وما سمعت»، وقد وصفها صاحب «علماء نجد» بأنها كراريس كثيرة، وذكر أن عمه سليمان البسام اطلع عليها واستعارها من المؤلف.

٤- كراسة في وفيات بعض الأعيان وبعض الأخبار الهامة، وتقع في ١٨ صحيفة، وذكر صاحب «علماء نجد» أنه حصل على صورة منها وأن أصلها موجود لدى عبدالرحمن البراهيم العبدالرحمن البسام.

* * *

التعريف بالمخطوط:

يذكر البسام في مقدمة تاريخه أن: «بعض الأخوان المحبين سأل أن أجمع له نبذة في التاريخ تطلعه على بعض الحوادث الواقعة في نجد، ووفيات بعض الأعيان وبعض شيء من أنسابهم، وبناء بعض البلدان» فقام بتأليف هذا الكتاب، وهذا المبرر متكرر أيضاً عند المؤرخ النجدي المعاصر له إبراهيم بن صالح بن عيسى في مقدمة أحد كتبه، ويبدو أن هذا المبرر كان منتشراً في تلك الفترة كما نجده في مقدمات الكثير من كتب الأسلاف عن مبررات التأليف في التاريخ، وهو حل للخروج من حرج ما فيه من صراعات وحروب وآراء خصوصاً إذا كان المؤلف من الأعيان الذي يحسب لمواقفهم حساب كما هو الحال بالنسبة لمؤلف التحفة.

وتاريخ تأليف الكتاب موضح في جملة منسوبة للمؤلف في كلا النسختين، وهي أنه «تم تحرير هذا الكتاب في سنة ١٣٣٥هـ»، وأرى أنها أصيلة النسبة للمؤلف لأنه يتوقف عن منهجه المعتاد في حوالي هذه السنة، ويبدأ بتسجيل ملاحظات مختصرة عن السنوات التالية رغم أهمية حوادثها لكونها تحتوي على فتوح الملك عبدالعزيز للحجاز، ولكن من الواضح أنه أتم الكتاب سنة ١٣٣٥هـ، ثم أضاف إليه بعض الأخبار المختصرة في السنوات التالية حتى سنة ١٣٤٤هـ أي قبل وفاته بعامين.

وهناك إشارة وردت في حوادث سنة ٩٧٤هـ إلى أن المؤلف بدأ في تحرير الكتاب في عهد السلطان عبدالحميد الثاني المنتهي سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وقد سبق أن

ذكرنا أنه كان وقتئذ في تجارته بالهند مما يوضح أنه أمضى أكثر من عشر سنوات في إعداد المسودة الأولى لكتابه، وهذا واضح من حجم الكتاب والجهد المبذول في جمع مادته والتحقق منها وتأليفها.

❖ ❖ ❖

❖ **المصادر التي اعتمد عليها البسام في تاريخه:**

يذكر البسام في مقدمة كتابه أنه اعتمد على عدة مراجع في كتابه هي كالآتي:

١- تاريخ الشيخ أحمد بن محمد بن عبدالله بن بسام، وهو نحو كراس ابتداه من سنة ١٠١٥هـ حتى وصل إلى سنة ١٠٣٩هـ لأنه توفي سنة ١٠٤٠هـ في بلد العيينة.

٢- تاريخ الشيخ أحمد بن محمد آل منقور التميمي، وهو نحو كراس ونصف ابتداه من سنة ١٠٤٨هـ إلى أن وصل إلى سنة ١١٢٥هـ، وهي السنة التي توفي فيها في حوطة سدير.

٣- تاريخ ابن يوسف، وهو نحو عشر ورقات.

٤- تاريخ حمد بن محمد بن لعبون.

٥- تاريخ ابن بشر.

٦- ثم بعد ذلك ما رأى وما سمع من ثقاة أهل عصره.

ولكن البسام في ثنيات كتابه يذكر مصادر أخرى منها تاريخ عبدالملك العصامي «سمط النجوم العوالي»، وتاريخ الرضي، وتاريخ المحبي «خلاصة الأثر»، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، وكتاب «الإعلام في أعلام البيت الحرام» وتاريخ الجبرتي بل أنه في السنوات الأخيرة من كتابه ينقل عن بعض الجرائد والدوريات كجريدة «اللواء» وتقويم جريدة «المؤيد» وغيرهما.

أما بالنسبة للتواريخ النجدية فنجد البسام لا يأتي على ذكر حسين بن غنام، ولكنه مصدر اعتمد عليه ابن بشر اعتماداً مباشراً ونقل عنه زبدته، كما أنه لا يذكر تاريخ الفاخري وإن كان يستشهد بأحد أشعاره نقلاً عن ابن بشر وتاريخ ابن ربيعة العوسجي.

ومن المحير فعلاً أننا عندما نقارن «تحفة المشتاق» لعبدالله البسام بتاريخي معاصره ومواطنه إبراهيم بن صالح بن عيسى المطبوعين «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد» و«عقد الدرر» نجد الكثير من الحوادث المتطابقة بل والجمل والتعابير المتشابهة مما جعل البعض يتهم البسام بأنه مجرد ناقل عن ابن عيسى دون أن يذكر ذلك ، ولكن الباحث عبدالكريم الوهبي رد هذا الإتهام عن البسام بالنقاط الآتية:

«- معلومات البسام أكثر تفصيلاً في معظم الأحيان.

- يورد البسام أحداثاً جديدة لم يوردها ابن عيسى . بل أرجح أن البسام قد اعتمد على مصدر لا يزال مجهولاً لدينا أو نسخة أوفى من المصادر أو المراجع المتداولة في الوقت الحاضر .

- أورد أحداثاً مفصلة عن الحجاز ، وبمقارنتها بما ورد في مخطوطة الرضي «تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسنية» تبين أنه اعتمد عليها كثيراً.» .. إنتهى كلام الوهبي.

ورغم ذلك فإنني متاكد أن البسام اطلع على مؤلفات ابن عيسى ونقل عنها بعض الأخبار خاصة في تغطية أحداث نجد في الفترة التي أمضاها البسام في الهند ، وأشير هنا إلى أهمية ما ذكره الوهبي عن حتمية وجود المصدر المجهول الذي اعتمد عليه البسام خاصة في تفصيلاته المذهلة بالوقائع والأسماء لتحركات القبائل البدوية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخه ، وهي تفصيلات وأسماء لا توجد لدى ابن عيسى ولا غيره من المصادر التي ذكرناها آنفاً.

❖ ❖ ❖

❖ إهتمامات البسام في تاريخه:

رغم أن «تحفة المشتاق» في الأساس هو تاريخ سياسي للحكام وتحركاتهم إلا أن ذلك لم يمنع المؤلف أن يقدم فنوناً شتى مما يمكن لكتاب تاريخي أن يقدمه ، وذلك في حقول متعددة يمكن تلخيصها في الآتي:

١- تداول المناصب والصراعات على الحكم:

يعد كتاب «تحفة المشتاق» مرجعاً مهماً لمعرفة كيفية تداول المناصب والصراعات

على الحكم خصوصاً في بلاد نجد ومدنها ومكة المشرفة . وقد أفرد البسام لتفصيل ذلك مساحات واسعة من كتابه.

٢- الحروب والمعارك:

إنفرد عبدالله البسام عن غيره من مؤرخي نجد باهتمامه بغزوات وحروب القبائل البدوية وأسماء المشاهير من قادتها وقتلاها كما ذكرنا آنفاً . وقد فصلنا القول سابقاً في مجهولية المصدر الذي ينقل عنه البسام هذه التفصيلات.

وإضافة إلى ذلك فـ «تحفة المشتاق» تاريخ لسلسلة متواصلة من الحروب والمعارك ، وخاصة تلك التي تقع بين أبناء البلدان النجدية ، وله اهتمام بالحروب التي تقع في الحجاز والأحساء والعراق وغيرها إلى حد ما.

٣- وفيات العلماء والأعيان:

عني البسام بتأريخ وفيات المئات من الشخصيات من علماء وزعماء و«أقرباء» أحياناً ، ولا ننسى هنا أن هذا هو أحد الأسباب الرئيسة التي دعت المؤلف لتاليف كتابه كما ذكر في مقدمته.

٤- تعمير المدن والمشروعات الإصلاحية:

حرص البسام في «تحفة المشتاق» على التقصي وراء تواريخ بناء المدن خصوصاً النجدية منها حتى وإن كان بعضها سابق لسنة ٨٥٠هـ التي بدأ تاريخه بحوادثها ، ولم يكتف بذلك بل حرص على تدوين ما وصل إليه من بناء للمشروعات ابتداء من عمارة الحرمين الشريفين وانتهاء بغرس بعض النخيل وحفر الآبار وما شابهها.

٥- الظواهر الكونية والافات:

إهتم عبدالله البسام في تحفته بالعديد من الظواهر الكونية والآفات الطبيعية والأوبئة ، ويمكن تلخيصها في الأطر التالية:

- ظهور الجراد وصغاره من الدبا ، وما يسببه من أضرار للمزروعات.

- سنوات القحط وما يصاحبها من جوع وغلاء ، وذلك في بلاد نجد في غالب الأحيان.

- سنوات الرخاء والخصب ورخص الأسعار في نجد خصوصاً.

- إشتداد البرْد أو هطول البرَد والسيول، وما يحدث جراء ذلك من إضرار بالزروع والبيوت.

- الأوبئة وخاصة الطاعون والكوليرا في عموم الجزيرة العربية وخارجها، وما تسببه من مهالك.

٦- الأحداث الإجتماعية:

لم يهتم عبدالله البسام بتواريخ المواليد كعادة المؤرخين إلا بالنسبة للمواليد ذوي الأهمية الإستثنائية - في الغالب - كالشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام عبدالعزيز بن محمد والملك عبدالعزيز آل سعود والشريف الحسين بن علي، كما أنه يؤرخ لمواليد بعض الشخصيات في سنوات وفياتهم أو عندما يرد ذكرهم كبعض العلماء والزعماء.

أما أحداث الزواج فلا ترد البتة في «تحفة المشتاق» وكذلك ما شابهها من الأحداث اللهم إلا ما يتعلق بسنوات حج بعض الشخصيات أو انتقالها أو جلائها من بلد إلى آخر.

ومن الأخبار الإجتماعية التي نجدها في الكتاب ما يهتم به المؤلف بصورة شخصية كتأريخ غرس بعض النخيل أو حفر آبار مشهورة أو أسعار الإبل وبعض السلع الغذائية، وهي أخبار على بساطتها تقدم لنا معلومات قيمة عن واقع المجتمع في الفترة التي يؤرخ لها الكتاب.

◆ ◆ ◆

◆ المنهج التاريخي للبسام في تحفته:

يعتمد عبدالله البسام على منهج الحوليات المعروف لدى المؤرخين الإسلامين، والمتداول بين غالبية مؤرخي نجد، ورغم أن المناهج الحديثة لعلم التاريخ استبعدت هذا المنهج تماماً لعيوبه المتمثلة في تشتيت ذهن القارئ بحوادث متتالية لا صلة بينها إضافة إلى أن حوادث التاريخ ذات طبيعة لا يمكن أن تفصلها السنوات، والمشهد التاريخي له جذور وفروع لا يصلح معها الزمن قاطعاً لحوادثه، وصار الحدث في عصرنا هو موضوع التاريخ لا الزمان ولا المكان الذي لا يصلح هو الآخر لحصر الوقائع لاتصال حوادث الأمكنة ببعضها البعض.

والبسام في كتابه يحاول الجمع بين بعدي الزمان والمكان عن طريق التأطير الحولي والحصر الجغرافي في المناطق الثلاثة التي يضمها عنوان التحفة ، ورغم أن عنوان الكتاب يعطي نصيباً للعراق إلا أن محتواه لا يقدم الكثير من أخبار العراق إلا في نتف متناثرة ، ولا يفصل في تواريخ العراق إلا في حوادث القبائل العراقية وبالأخص ما كان منها متصلاً بحوادث نجد ، كما أن البسام يهتم في كتابه بحوادث الاحساء بشكل يفوق حوادث العراق رغم أن العنوان لا يشمل إقليم الاحساء بل أن في الكتاب وقائع متفرقة حدثت في بلاد الشام ومصر وفارس بل وفي أوربا وشرق آسيا أيضاً !!

وعبدالله البسام في ظل الفترة التي كتب خلالها «تحفة المشتاق» كانت تتنازعه عدد من الولاءات منها انتماؤه العائلي إلى آل بسام ، وهم أسرة كان لها دور في تاريخ نجد علاوة على كونها أسرة علم برز منها الكثير من الفقهاء والعلماء والقضاة والأدباء ، وبالتالي نجده في كتابه مدفوعاً للتاريخ لحوادث أسرته ووفياتهم ، ولكن عاطفته الشخصية لم تؤثر في أمانة قلمه فنجده يذكر الحوادث والخصومات التي دخلتها أسرته دون تعاطف أو تبريرات إلا في أضيق الحدود ، ويكفينا تدليلاً على حياده أنه عندما تحدث عن المعركة التي قتل فيها أبوه سنة ١٢٧٩هـ لم ينحز بل ولم يشر إلى مقتل أبيه فيها !!

وبالإضافة إلى الإنتماء العائلي نجد انتماء المؤلف إلى بلدته عنيزة ، وهو انتماء قوي حتم عليه أن يهتم بأخبار هذه المدينة وشقيقتها بريدة ، ويؤرخ لحوادثهما دون انحياز واضح .

والبسام ذو عاطفة دينية ، ونجده يهتم بدعوة الإصلاح السلفي التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأحداث الدولتين السعودية الأولى والثانية وبدايات تأسيس الملك عبدالعزيز آل سعود للمملكة العربية السعودية في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين الميلادي ، ولكن البسام لم ينح منحى ابن غنام وابن بشر فهو يتناول الأحداث بانحياز أقل منهما نظراً لطبيعة الفترة التي عايشها البسام والظروف التي عاصرها ، ولكنه في المحصلة النهائية لم يتجن وأعطى رموز هذه الدعوة من أئمة وأمراء ما يستحقونه من احترام وتقدير لدورهم في صنع الحاضر المشرق والوعي الديني الذي تعيشه الآن جزيرتنا العربية .

ويلاحظ القارئ لدى البسام اهتماماً مبالغاً فيه بأخبار مكة المشرفة وتعاقب

الأشراف على حكمها ، وليس لهذا من سبب – في اعتقادي – إلا لتوفر المصادر التي تؤرخ للحجاز بين يديه فأسرف في تفصيل حوادثها كما فصّل في حوادث الدولتين السعوديتين الأولى والثانية في أواخر القرن الثاني عشر وكامل القرن الثالث عشر الهجريين لاعتماده على ابن بشر الذي قدم تفصيلات مذهلة عن تاريخ نجد في تلك الفترة.

الأسلوب اللغوي للمؤلف:

لغة البسام فصيحة بسيطة لا بأس بها تخالطها بعض العامية بشكل قليل لا يضر بها باستثناء حوادث السنوات الأخيرة من كتابه التي كثرت فيها الألفاظ العامية ، ولا نجد في كتابه شيئاً من آثار السجع والمحسنات البديعية كسلفه ابن غنام إلا في أضيق الحدود وبشكل لا يمكن التنبه إليه إلا بصعوبة باستثناء خطبة المقدمة ، وهو لا يعتمد على الشعر كمعاصره ابن عيسى في «عقد الدرر» ، ولا يورد من الشعر إلا ما يفرض الحدث وجوده وبحدود ضيقة ، وليست لدى البسام حساسية من إيراد الشعر النبطي كما كان الأمر لدى ابن بشر مثلاً إذ أننا نجده يستشهد بأشعار لمحمد بن لعبون وحميدان الشويعر وأحمد أبو عنقا وراجح الشريف وغيرهم ، وغالباً ما تكون استشهاداته النبطية أطول وأكثر عدداً من الفصيحة.

ولا تختلف لغة عبدالله البسام في «تحفة المشتاق» عن لغة أسلافه من المؤرخين النجديين في ظل بساطة مستويات التعليم المتوفرة في ذلك الوقت ، فنجد لديه أسلوب «أكلوني البراغيث» أي جمع فعل الجملة الفعلية وتثنيته حسب طبيعة الفاعل ، كقوله : «ساروا أهل القصيم» أو «قتلوا القبيلة الفلانية علاناً» ، وهو يذكّر الفعل غالباً حتى لو كان الفاعل مؤنثاً كما في قوله «حصل وقعة» كما نجد لديه تساهلاً في ضبط الأعداد ونصب المميز والحال كما أنه في يحول الهمزة إلى ياء وهو أمر جائز في اللغة كما في «مايه» و«حايل» إلا أن ناسخي المخطوطة وخاصة الأستاذ المصري محمد نورالدين شريبة أعادا الهمزة إلى معظم المواضع وصححا كثيراً من أخطاء المؤلف الإملائية والنحوية كما اتضح لي من المقارنة بين المخطوطتين.



◆ دواعي التحقيق وأهمية الكتاب:

بالإضافة إلى ما كتبه حسين بن غنام وتاريخ عثمان بن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد» يعد كتاب «تحفة المشتاق» أكثر التواريخ النجدية توسعاً واكتمالاً وأكبرها «حجماً» على الإطلاق فيما رأيت من مخطوطات ومطبوعات بل أن صاحب «علماء نجد» يصفه بأنه «أحسن وأوفى وأعدل تواريخ نجد».

والبسام في تحفته عني بشكل أكبر من ابن بشر بالفترة السابقة لدعوة الإصلاح السلفي لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب كما أنه يغطي سبعين سنة بعد تاريخ ابن بشر، وبشكل أكثر تفصيلاً مما قدمه معاصره ابن عيسى في تواريخه، ومن هنا تأتي أهمية «تحفة المشتاق» بالإضافة إلى أنه عني أكثر من غيره بحوادث القبائل في البادية وأعلامها، وحوادث مكة المكرمة مما يعطي كتابه هذا صفة الشمولية.

ومما يدل على أهمية هذا الكتاب وحاجة المكتبة العربية إلى تحقيقه ونشره حرص الكثير من المؤرخين على اعتماده مرجعاً فيما يكتبون، وخاصة من يهتم بأخبار قبائل البادية، ونجد أن الباحث الأستاذ فايز البدراني قد أفرد لأخبار البسام حيزاً كبيراً من كتابه «من أخبار القبائل في نجد» وغيره من كتاباته عن قبيلة حرب وقام بجهد كبير في تحقيق تلك الأخبار، وقد قام كل باحث بأخذ ما يخص قبيلته من التحفة كما فعل الباحث عبدالله العسكر في كتابه عن قبيلة الظفير، والباحث مشعل العنزي في كتابه عن قبيلة عنزة، والباحث خالد القريشي في كتابه عن قبيلة سبيع، والباحثين ناصر العازمي وعبدالله الهران في كتابيهما عن قبيلة العوازم .. إلخ



◆ أصول المخطوط:

عثرت خلال بحثي على مصورتين لنسختين مختلفتين من مخطوطة «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» في مكتبة الملك فهد بن عبدالعزيز في الرياض في يوليو ٢٠٠٠م، وهما كالآتي:

◆ النسخة الأولى:

بخط عبدالله العبيد، وسأرمز لها خلال تحقيق المتن بالرمز (ع).

وتتكون من ٢٣٢ صفحة من دفتر للحسابات بقطع الفولسكاب ، وهي مكتوبة بخط الرقعة ، وهذه النسخة بخط عبدالله الصالح العبيد نقلها عن المخطوطة الأصلية ، ولعله يقصد نسخة المؤلف البسام ، وذلك في ربيع الأول ١٣٨١هـ.

وفي آخرها زيادات من الناسخ حول بعض الوفيات اللاحقة لوفاة المؤلف ، وبيان من تولى الإمارة والقضاء في كل من بريدة وعنيزة.

أما الصفحة الأولى من نسخة العبيد فتحتوي على جملة وردت في آخر المخطوطة الثانية هي «تم تحرير هذا الكتاب في سنة ١٣٣٥هـ ، وبعض المعلومات التي أظنها من زيادات الناسخ ، وأبيات شعرية ومقولة لأحد العلماء في الكتب.

﴿ النسخة الثانية:

بخط نور الدين شريبة ، وسأرمز لها خلال تحقيق المتن بالرمز (ش)

وهي النسخة المشتهرة عند الباحثين ، وقد وجدتها في الرياض بمكتبة الملك عبدالعزيز ومكتبة الملك فهد ودارة الملك عبدالعزيز بينما لم أجد صوراً للنسخة الأولى (ع) إلا في مكتبة الملك فهد كما تقدم ، وهي مكتوبة على دفتر مسطر أقل قياساً من السابقة ، ويتكون من ١٩٠ صفحة مزدوجة أي «٣٨٠» صفحة لصغر مساحة الصفحة عن النسخة السابقة ، وتمتاز بكونها أكثر تنظيماً وفصلاً بين الأحداث الواقعة في السنة الواحدة ، وأراها أكثر التزاماً بنص المخطوطة الأصلي حتى في هفوات المؤلف الإملائية والنحوية رغم أن الناسخ أصلح عدداً منها.

ويعيب هذه النسخة كثرة التصحيف في أسماء الأعلام والقبائل والمواقع نظراً لأن ناسخها هو أستاذ مصري من خريجي الأزهر يدعى «محمد نورالدين بن السيد بن عوض بن حسين بن سالم آل شريبة» ، وذكر أنه من بلدة الصوفية إحدى بلاد كفر صقر في مديرية المنوفية في الجمهورية المصرية ، وذكر أنه نقل المخطوط عن المخطوطة الأصلية المحفوظة لدى ابن المؤلف في عنيزة ، وأنه فرغ من نقلها مساء السبت ٢٨ شعبان ١٣٧٥هـ (٣١ مارس سنة ١٩٥٦م) حين كان منتدباً من قبل وزارة المعارف المصرية للتدريس بالمملكة وبالتحديد في المدرسة الثانوية بعنيزة.

وأشار شريبة في نهاية نسخته إلى أنه ليس لهذا الكتاب أصول خطية غير هذه المخطوطة ، وهي تقع في ست عشرة ومائة ورقة (كذا) من القطع المتوسط «مسطرته

مختلفة» ، وقد كتب بأقلام مختلفة ورقمت صفحاته جميعاً ولم يكتب له تعقيب ، وأضاف : «هو من أوله إلى الصحيفة الرابعة والعشرين بعد المائتين مكتوب بقلم نسخي واضح مرتب ، ومن تلك الصحيفة إلى الصحيفة السادسة والعشرين بعد المائتين مكتوب بقلم آخر أميل إلى مشابهة الفارسي والأرقام الحسابية كتبت بالأرقام الفارسية ، ومن الصحيفة السابعة والعشرين بعد المائتين إلى آخر الكتاب كتبت بقلم ثالث ومداد يختلف عن مداد القلمين الأولين».

وأوضح شريبة أنه «بهامش الكتاب استدراكات كان يكتبها المؤلف ، وهي في الكتاب كله بقلم واحد ويبدو أنها بخط المؤلف نفسه ، وهي تكثر في القسم الأول من الكتاب – أي حتى ص ٢٢٤ – وتقل في القسمين الأخيرين وبخاصة الأوراق الثلاثة الأخيرة».

وبمقارنة النسختين (ش) و(ع) وجدت اختلافاً في ترتيب بعض الحوادث داخل السنة الواحدة من تقديم أو تأخير خاصة في حوادث السنوات الأخيرة كما أنه يوجد اختلافات بسيطة في بعض التعابير لعلها من تصرفات الناسخين ، وتوجد بعض الأخبار القصيرة التي توردها نسخة دون أخرى ، ولكن بقراءة متفحصة أكاد أجزم أن الناسخين اعتمدا على نسخة واحدة هي نسخة المؤلف ، ولكن (ش) أكثر دقة وتنظيماً وإن كانت الأكثر تصحيفاً ، ويعيب (ع) كونها تغفل بعض الأسطر من داخل الحوادث ، ويميزها أن صورتها أكثر وضوحاً من الصورة المتوفرة عن (ش).

الصفحة الأولى من نسخة (ش)

الصفحة الأولى من نسخة (ع)